مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، فصليّة محكّمة، العدد التاسع، ربيع ١٣٩١هـ.ش/٢٠١٢م

قراءة نقدية في كتاب النقد الثقافي للدكتور عبد الله الغذامي

الدكتور يوسف حامد جابر*

الملخص

يهدف كتاب النقد الثقافي إلى الكشف عن المضمر النسقي في النصوص الأدبية التي تشكل بنية الثقافة السائدة، ويطرح مشروعه النقدي بوصفه بديلاً من النقد الأدبي الذي تقتصر مهمته على البحث في جماليات هذه النصوص، ليمارس فعل التعمية على مضمراتها التي تمثل جوهرها الحقيقي.

من هنا يأتي النقد الثقافي ليكشف عن تلك الأنساق الثقافية، ويقوم بتعرية مضامينها، وكشف أنماطها التي تتداخل مع أنماط المجتمع، فترسخ من خلال ذلك هيمنتها عليها، ثم تعمم هذه الهيمنة عبر وسائل الإنتاج الثقافي والاجتماعي المختلفة. وقد قمنا بمناقشة مضمون هذا الكتاب في أهم مفاصله وعملنا على تصويب بعض مساراته.

كلمات مفتاحية: النقد، الثقافي، الأنساق، عبد الله الغذامي

المقدّمة

بدأ النقد الثقافي يطل على الساحات المعرفية في العقود الأخيرة من القرن الماضي، بوصفه بديلاً من النقد الأدبي، يستوعبه، ويتجاوزه في الوقت ذاته، فإذا كانت مهمة النقد الأدبي تقويم الأعمال الأدبية بعد تحليلها واكتشاف قوانينها الداخلية، فإن النقد الثقافي يتجاوز هذه المهمة ليخلق شبكة من التداخلات المعرفية التي تشمل حقول المعرفة الإنسانية، الساعية إلى الكشف عن الأنساق المضمرة في النصوص الأدبية التي لم يتمكن النقد الأدبي من كشفها والقبض عليها، إذ إن النصوص الأدبية تخفي في ثناياها متوناً أخرى غير متون القيم الفنية والجمالية التي تخلقها علاقات التركيب والصورة والأسلوب والدلالة التي يسعى الناقد الأدبي إلى إظهارها، متوناً تصنعها بنية ثقافية، تقوم بتشكيلها قيم اجتماعية وتاريخية وحضارية، عبر مسارات زمنية متنامية، تتغلغل في بنية النصوص الأدبية، وتوجهها،

---

* - أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٩/١٥= ٢٠١١/١٢/٦ تاريخ القبول: ١٣٩٠/١٢/٢٠ = ٢٠١٢/٠٣/١٠

بقصد أو من دون قصد، لخلق أنظمة معرفية تهيمن على السياسة والاقتصاد والتاريخ، وتخطو مخرجاتها باتجاه تكوين علاقات نمطية تتفاعل مع ذاتها، وتتوالد باستمرار، لتعيد إنتاج دلالاتها التي تتحكم بمفاصل إنتاج الثقافة وتوزيعها.

إن كتاب «النقد الثقافي» للدكتور الغذامي يقوم على تبني مثل هذه النظرية وتعميم فعلها على البنية الثقافية العربية، من خلال الكشف عن الأنساق المضمرة في بنية هذه الثقافة التي تخبئ داخل خطابها البلاغي والجمالي قيماً أخرى غير جمالية، منطلقاً من أن الجمالية ليست إلا " أداة تسويق وتمرير لهذا المخبوء، وتحت كل ما هو جمالي هناك شيء نسقي مضمر، ويعمل الجمالي عمل التعمية الثقافية لكي تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت قناع"[١].

لذلك فإن الهدف الذي يسعى الغذامي للوصول إليه من مشروعه هذا، هو أن هذه الأنساق المضمرة في النصوص الشعرية خاصة، هي التي أنتجت مفاهيم الفحولة الشعرية التي من سماتها، التعالي، وعشق الذات والتمايز بين الآخرين، واحتكار القيم التي أنتجت، بدورها مفاهيم الفحولة السياسية، بما مارسته من طغيان سياسي واجتماعي عبر العصور. فضلاً عن ذلك فإن كتاب الغذامي هذا يطرح قضايا إشكالية، تمس جوهر العلاقة بين المثقف / الشاعر، والسلطة، اذ يحمل الغذامي الشاعر مسؤولية فساد السلطة وطغيانها، دون البحث في طبيعة السلطة وعلاقاتها وممارساتها.

وبالنظر إلى ذلك، فإننا سنقوم بقراءة هذا المنتج النقدي، ومناقشة أبرز محتوياته، في محاولة لإعادة تصويب بعض مساراتها، من خلال عدد من المحاور الأساسية، نذكر منها: ١- النقد الثقافي / المنهج والمصطلح، ٢- النسق الناسخ / اختراع الفحل. ٣- تزييف الخطاب / صناعة الطاغية.

أولاً: النقد الثقافي / المنهج والمصطلح:

يباشر الغذامي هذا المحور بطرح عدد من الأسئلة، تشكل مفاتيح دراسته هذه، لعل أبرزها ما يتناول فيها الحداثة العربية، وهل هي حداثة رجعية ؟ ثم يتساءل بعدها عن مضمون الشعر العربي

[١]- عبد النبي اصطيف، **نقد ثقافي أم نقد أدبي**، ص٣٠.

ومسؤوليته في القضاء على الشخصية العربية، بإسهامه في اختراع الطاغية السياسي الذي يقاربه الناقد مع الفحل الشعري [١].

وقبل أن ننتقل إلى قضايا أخرى تشكل مقومات بحثه، لا بد من مناقشة الغذامي فيما تم طرحه هنا، ونعني بذلك مسألة الحداثة بوصفها حركة تمس قضايا الإنسان، بما في ذلك قضايا النقد الثقافي الذي يعد أحد تجليات الحداثة التي تعد بدورها إحدى تجليات العولمة، كما سنبين لاحقاً. وهنا يمكن أن نسأل الغذامي، هل توجد لدينا في الأصل حداثة عربية، بالمفهوم العلمي للمصطلح ؟، وهل الحداثة بوصفها تمثل نصاً مفتوحاً على مضامين التقدم والتطوير، لا بل هي إدخال هذه المضامين في مسرح الحياة وحركتها الفاعلة، استطاعت أن تدخل إلى مفاصل الحياة العربية ؟ أم أنها ظلت طافية على السطح من خلال شعارات يتم إطلاقها بين الحين والآخر، كي تمارس فعل التعمية عما يجري حقيقة في أصل هذه الحياة ؟ إن مثل هذه الأسئلة تثير إشكاليات كبرى أيضاً، تخص حركة النقد العربي الحديث الذي يدور في فضاء الحداثة، سواء أكان نقداً أدبياً أم نقداً ثقافياً ؟ فإذا كان النقد ممارسة منهجية في البحث تتناول الأعمال الأدبية وفقاً لدراسات متكاملة ومتفاعلة، تراعي وحدته، وتعمل على مقاربته مع فضائه الإنساني والحضاري، وتستثمر طاقاته الخلاقة تفسيراً وتحليلاً وتأويلاً، وتعيد صياغته نقداً، لتجعل جذوة الحياة كامنة فيه، فإن إمكانية فعل ذلك تكاد تكون غائبة عن نقدنا الحديث، ليس عن الفعل النقدي الإبداعي، وإنما عن وجوه الحياة الأخرى، فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بالحداثة التي وفدت مفاهيمها ومفرزاتها إلينا من الغرب، دون أن نكون قادرين على تهيئة المناخات المناسبة لتجسيد هذه المفاهيم، واستقبال تلك المفرزات ؟! ففي الغرب مثلاً كان هناك نمو معرفي أفقي وعمودي، تم إنجازه وفق عملية تاريخية نجم عنها تطور مجتمع شامل ومفتوح في مختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، واللاحق يبنى على السابق، فـ فوكو في الحفر المعرفي، ودريدا في التفكيك، وجادامر وهيدجر وهوسرل وغيرهم في التأويل والفنومنولوجيا وغيرهما، ما كانت نظرياتهم لتقوم دون نظريات نيتشة وكانط وهيجل وديكارت وغيرهم، أما في المجتمع العربي فإن مثل هذه المفاهيم، في الأصل، هي مفاهيم مهزوزة، فنحن لا نستطيع الحديث عن ديموقراطية أو عقلانية أو علمانية بالمعنى

[١] - عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية**، ص٧.

الحقيقي للكلمة؛ أي لا يمكننا الحديث عن امتلاك حداثة حقيقية، إننا في كثير من القضايا نواجه لاعقلانيات تخترق مجتمعاتنا، وترسخ فيها قيماً تقليدية ترتد بنا إلى قيم أكثر سطحية وانغلاقاً.

ننتقل إلى قضية محورية مهمة يؤكدها الغذامي على مساحة دراسته كلها، وهي إعلانه عن موت النقد الأدبي، بسبب انشغال هذا النقد، حسب زعمه، في قراءة الجمالي الخالص، وتسويغة وتسويقه، ومن ثم، إخفاقه في معرفة عيوب الخطاب، وفي كشف ألاعيب المؤسسة الثقافية وحيلها في خلق حالة من التدجين والترويض العقلي والذوقي لدى مستهلكي الثقافة، وإحلال النقد الثقافي مكانه[١].

إن الغذامي لا يكف عن إطلاق الأحكام التي تنقصها الدقة في كثير من المواضع، سعياً وراء تأكيد مقولاته. وهنا نريد أن نسأله، من قال إن النقد الأدبي يقرأ الجمالي فقط ؟ إن هذه المسألة، إن حصلت، ليست علّة النقد الأدبي، وإنما علة الناقد، فالنقد الأدبي يشتغل على النص الأدبي، والنص الأدبي فعالية ليست ثابتة، وإنما فعالية متحركة ديناميكية محتملة، وهو يمتلك ذواكر عديدة، ومثلما هو متعدد المعاني، هو متعدد القراءات أيضاً، إنه نص مفتوح، وكل قراءة فيه تنتج معاني جديدة، وهذه المعاني تمس أدق مفاصل الحياة، بسبب " أن النص هو منتوج للشاعر، والشاعر قائم في مجال اجتماعي، وبالتالي، فهو محكوم بالحركة الصراعية المتولدة فيه، مما يسمح بنقل سمات هذه الحركة إلى النص من منظور رؤيته لها، وموقفه المؤسس على هذه الرؤيا، الأمر الذي يجعل النص أكثر التصاقاً بالحياة، ويسمح لنا بمعرفة المزيد عن خصائص الحركة الاجتماعية القائمة التي يشكل النص أبرز منعكساتها " [٢] وتصبح مهمة النقد الأدبي هنا هي الغوص في عالم النص، الذي ينفتح على عالم المبدع / الشاعر، يتقمصه كي يكتشف عالمه الواسع، ويقبض على مكوناته عبر عمليات إعادة إنتاجه في كل مرة، وهي مكونات جمالية وغير جمالية. فكيف فات الناقد الغذامي إدراك هذا الفهم، وهو الذي جعل دوائر نقده تتسع لتطال أنشطة ثقافية واجتماعية عديدة ومتنوعة ؟!.

إن هناك صلة وثيقة تربط النقد الأدبي بالعلوم الإنسانية، كالفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والأدب واللغة، بوصفها تشكل مكونات الحياة وتجلياتها المعرفية والسلوكية في

---

[١] - المرجع نفسه، ص٨-٩.

[٢] - يوسف حامد جابر، **قضايا الإبداع في قصيدة النثر**، ص٧.

كل زمان ومكان."إن النقد يكشف بدوره في الأدب عن الإنسان في محيط اجتماعي عادي، في الأسرة أو المجتمع الخاص به، أو بنواحيه المختلفة، فيكشف بذلك عن طبيعة الإنسان في ذاته وعن كفاحه في تحقيق مصيره، سواء كان هذا الكفاح ضد الطبيعة أو ضد قيود مجتمع ما، أو ضد من يقفون في سبيله من الأفراد" [١]. وبذلك يصبح أبرز مهامه الكشف عن أسرار هذا الواقع وتعرية مقوماته ومرتكزاته التي يتضمنها النص الأدبي، وليس من مهامه التعمية على هذا الواقع والقفز من فوقه.

إن الناقد الغذامي مغرم بالنقد الثقافي، لا يكف عن مدحه وتثمين قيمته، دون أن يبين لنا كيف تسرب هذا النقد إلى الساحة الثقافية العالمية، ثم استقطبته الساحة الثقافية العربية بوصفه أحد مفرزات حركة العولمة التي تعمل على احتواء مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية، والسيطرة عليها، بعد أن تمكنت هذه العولمة من اختراق معظم الحصون الثقافية والفكرية والعقائدية التي بنتها المجتمعات البشرية لتحصين ذاتها من مثل هذا الغزو، دون أن يعني ذلك أن العولمة لا تتضمن قيماً إيجابية، تخص الثورة المعلوماتية، وتطور وسائل الاتصال والإعلام وتحديث معالم المجتمع، وغير ذلك. غير أن تمثل مثل هذه القيم لمصلحة إنسان هذه المجتمعات، وليس إلى تركها تدخل مفاصل حياتنا، وتتغوّل فيها، لتجعل كل شيء فيها تابعاً لها على حساب مستقبل الإنسان العربي وهويته، والطعن في انتماءاته الفكرية والحضارية. وقد تمثل هذا بشكل واضح في طروحات النقد الثقافي الذي تبناه الغذامي، وجسده في تناوله البنية الثقافية العربية، ولا سيما الشعرية منها، دون تحليل موضوعي لبنية المجتمع العربي ولتحولاتها عبر العصور، وهذا سيشار إليه في حينه.

ننتقل مع الناقد الغذامي إلى قضية تخص حساسية الناقد الأدبي الذي ينفي عنها سمة التطور والتجديد عبر مراحل تشكل النقد الأدبي حيث يقول: "ما كان جميلاً في نظر الناقد القديم ظل جميلاً لدى الناقد الحديث" [٢]. وهذا كلام يفتقر إلى الصواب والدقة، ذلك أن الغذامي لم يجر مقارنة بين مواقف أعلام النقد القديم، ومواقف أعلام النقد الحديث من أشكال المكونات الأدبية ومضامينها ومفهوماتها. صحيح أن هناك مواقف نقدية قديمة وأخرى حديثة، يمكن مقاربة بعض مكوناتها، غير أننا

[١] - محمد غنيمي هلال، **النقد الأدبي الحديث**، ص١٤.

[٢] - عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي**، ص٥٩.

نجافي الصواب إذا قلنا إن الحساسية النقدية بقيت كما هي في القديم والحديث، ولا نعتقد، ولا نظن أن غيرنا يعتقد كذلك، أن مواقف الأصمعي وابن سلام وابن قتيبة وثعلب وابن المعتز وابن طباطبا والعسكري والآمدي والقيرواني وغيرهم من مفاهيم الشعر واللغة والخيال والصورة والتركيب والوزن والإيقاع وغيرها، هي نفسها مواقف العقاد ونعيمة وطه حسين ومندور ولويس عوض ومحمود أمين العالم وحسين مروة وأدونيس وجابر عصفور وكمال أبو ديب وغيرهم. صحيح أن مفاهيم الحداثة في حياتنا الثقافية والاجتماعية هي مفاهيم مهزوزة، بسبب كونها ما تزال في الإطار النظري غير الممنهج، وغير المصوغ في إطار نظرية متكاملة، بسبب عوامل تعود إلى طبيعة المجتمعات العربية، وطبيعة نخبها المثقفة، ولكنها تطل بين الحين والآخر بشكل خجول، وتسعى إلى تحريض المتلقي على تمثلها وبلورتها.

إن حكم الغذامي هذا يعود إلى رغبته في تسويق مشروعه في النقد الثقافي، لأنه قل أن تخلو صفحة واحدة من تأكيده على أهمية هذا النقد وأهمية ممارسته، ومن ثم، التأكيد على الدلالات النسقية المضمرة التي يمكن للنصوص الأدبية أن تتضمنها، ثم دعوته إلى إحداث نقلة نوعية للفعل النقدي من كونه النقدي إلى كونه الثقافي، مما يستدعي، من وجهة نظره، عدداً من العمليات الإجرائية، يجب الأخذ بها، وهي النقلة الاصطلاحية التي تشمل عدداً من الوظائف والدلالات، لعل أبرزها، الدلالات النسقية ذات البعد الثقافي، والمجاز الكلي، والتورية الثقافية، ونوع الدلالة والجملة النوعية، والعملية الثانية هي النسق الثقافي، ثم وظيفة النقد الثقافي المتمثلة بالانتقال من نقد النصوص إلى نقد الأنساق، ثم التطبيق المتمثل بمعرفة الأنساق التي أبرزها نسق الشخصية الشعرية [١].

وعلى الرغم من أن الناقد يفصل في هذه العمليات الإجرائية، ويمعن في شرح واستحضار الأدوات والمفاهيم والطرائق الأخرى التي يمكن أن تدعم حضور النقد الثقافي، وترسخه في الساحة المعرفية، مما يعكس خلفية معرفية غنية، غير أنه كان يخفق أحياناً في إطلاق بعض الأحكام، وفي تمرير دلالات تحتاج إلى تصويب وإعادة نظر. ففي معرض حديثه عن الدلالة النسقية نجده يفصل بين الدلالة الصريحة المرتبطة بالشرط النحوي والوظيفة النفعية، وبين الدلالة الضمنية المرتبطة بالوظيفة الجمالية، ثم

[١] - المرجع نفسه، ص٦٢-٨٩.

يضيف دلالة ثالثة هي الدلالة النسقية التي تكشف عن الفعل النسقي داخل الخطابات [١]، وإذا كنا ألمحنا إلى أن مفهوم الجمال ليس ثابتاً، وإنما هو متغير بتغير الحساسية الأدبية المرتبطة، بشكل أو بآخر، بتغيرات غير أدبية، وبأن ما يسمى بالدلالة النسقية يمكن للنقد الأدبي أن يكشف عنها، فإننا نذكر الدكتور الغذامي بأن علاقة وثيقة تربط بين البنية النحوية والبنية الضمنية، وأن هناك تحولات مستمرة تمارسها البنية النحوية لخلق مضامين البنية الضمنية، وإغناء هذه المضامين، وأن النحوي هو الذي يتضمن الدلالة الأدبية، ويدفعها باتجاه المتلقي. فالنحوي هو تشكيلات البنية اللغوية وقواعدها، ولا يمكن الوقوف على أية دلالة نصية إلا من خلال البنية النحوية. فاللغة تتشكل وفق علاقات نحوية، ولا يمكن فصل محاورها ومقوماتها، إلا من أجل تعريف هذه المحاور ومحمولاتها التي تنسج في نهاية الأمر فضاء عالمها، الذي هو فضاء إنساني، كي تخصب هذا الفضاء من خلال إسهامها في تشييده أولاً، ثم في كشفه ثانياً. إن " الإنسان يشكل وجوه حياته من خلال اللغة بأكثر مما يعرف. العبادة والحب والسلوك الاجتماعي والفكر المجرد، وصور المشاعر، كل ذلك تشكله اللغة"[٢]. ولذلك يمكن القول إن علاقات أساسية فاعلة تربط بين النحوي والأدبي والثقافي لكشف أنماط النص وأبعاده ومستوياته.

ثانياً: النسق الناسخ / اختراع الفحل:

يعد هذا المحور أبرز محاور كتاب الغذامي وأكثرها غنى بالمعلومات، لأن غاية الناقد في عمله هذا أبرز ما تتجلى في هذا الجانب الذي يتسع ليشمل الأساس الذي تقوم عليه بنية الشعر العربي، إذ يطعن من خلالها في سلوك الشاعر العربي الذي يقوم في معظمه على المراوغة والكذب والنفاق وضخامة الأنا، حسب زعمه، مما أسس شخصية عربية تمثلت مقومات ذلك السلوك، ورسخته من خلال علاقات اجتماعية نمطية، تدفع باتجاه ترسيخ ثقافة غير عقلانية، هي ثقافة الزيف والطمع والتفحيل وإلغاء الآخر. يقول: "وفي بحثنا هذا سوف نسعى إلى تشريح الأنساق الثقافية التي نرى أنها هي المكونات الأصلية للشخصية العربية التي صاغها الشعر صياغة سلبية / طبقية وأنانية، وتخلق من ورائها

[١] - المرجع نفسه، ص٧٢-٧٣.

[٢] - مصطفى ناصف، **نظرية التأويل**، ص٢١.

أنماط سلوكية وثقافية ظلت هي العلاقة الراسخة في قديمنا وحديثنا " [١]. وكان سبق سعيه هذا تأكيده على أن " شخصية الشحاذ والكذاب والمنافق والطماع من جهة، وشخصية الفرد المتوحد فحل الفحول ذي الأنا المتضخمة النافية للآخرين من جهة ثانية، هي من السمات المترسخة في الخطاب الشعري ومنه تسربت إلى الخطابات الأخرى، ومن ثم صارت نموذجاً سلوكياً ثقافياً يعاد إنتاجه بما أنه نسق منغرس في الوجدان الثقافي مما ربى صورة الطاغية الأوحد (فحل الفحول)" [٢].

من هنا، نجد أن الغذامي يبدأ بالنتيجة أولاً، ثم يقوم بعد ذلك بتدعيمها، وبث الروح فيها، مخالفاً في ذلك قواعد البحث العلمي، لأن البحث العلمي من مهامه أن يبدأ أولاً بتناول الظاهرة واستقراء مكوناتها، ومقاربة هذه المكونات للوصول إلى الأحكام والحقائق، وليس العكس، لأن في الاستقراء انتقالاً للفكر من الجزء إلى الكل، من دراسة النصوص إلى تكوين الحقائق العامة والسمات المشتركة التي تعد بمثابة القوانين التي تكشف عن مفاصل هذه النصوص، وهذا لم يفعله الغذامي، مما يُشعر بعدم علمية أحكامه، والطعن في نزاهتها، خاصة إذا نحن أدركنا أن الأحكام التي تشكل منطلقاً للنقد الثقافي، كما لغيره، ينبغي أن تكون شاملة لبنية الظاهرة الثقافية موضوع البحث، وليست مجتزأة، فالنص بنية كلية، واختزال فكرة ما، من خلال عزلها عن سياقها الكلي يشكل خروجاً عن سياق الممارسة الإيجابية للظاهرة، والاستقواء بها على بقية الظواهر الأخرى. وهذا ما فعله الناقد في مواضع عديدة، إذ يقول: " ولقد ورد في الأثر الشريف في حديث الرسول (ص) أنه قال: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يَرِيَه خير من أن يمتلئ شعراً، وهذا أول موقف مضاد للشعر" [٣].

إن الغذامي يتسلح هنا بقول الرسول (ص) الذي يسفه فيه الشعر، ويسفه قائله، جاعلاً من هذا القول درعاً يتحصن خلفه للطعن في وظيفة الشعر الإيجابية، بوصفه ديوان العرب وسجل تاريخهم وحاملاً لقيمهم، غير أن الناقد قد أغفل مواقف أخرى للرسول (ص) كانت تثمن الشعر وتعلي من شأنه، عندما كان ينصت إلى روائع الشعر العربي، فيقول: "إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان

[١] - عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي**، ص٩٤-٩٥.

[٢] - المرجع نفسه، ص٩٤.

[٣] - المرجع نفسه، ص٩٥.

لسحرا"[١]، وهذا اعتراف من الرسول (ص) بأهمية الشعر، وما يحتويه. كما أغفل الغذامي حثّ الرسول (ص) حسان بن ثابت شاعر الرسالة المحمدية على قول الشعر والمنافحة عن الدين، في قوله: " اهجهم وروح القدس معك"[٢]. وأغفل قول الخليفة عمر الذي يدفع فيه الناس إلى تعلم الشعر "احفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن محاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها" وحتى القرآن الكريم لم يذم الشعراء بعامتهم، وإنما قسمهم إلى فريقين، فريق مع الله وفريق مع الشيطان[٣] فكيف تناسى الغذامي هذه الأحكام التي تنطلق من أعلى القيم الدينية وذروتها ؟.

إن موقف الرسول (ص) الذي قدمه الغذامي دليلاً على زيف الشعر وانحطاطه، إنما هو مرتبط بسياقه التاريخي، والهدف منه، هو الوقوف في وجه شعراء قريش ومن يساندهم، ممن افتروا على الله والرسول والمسلمين كذباً وزوراً، لأننا ندرك أن الرسول الأكرم قام بتوجيه شعراء الدعوة الإسلامية إلى المسار الصحيح، انطلاقاً من الوظيفة النبيلة التي يمكن للشعر أن ينهض بها، وهي الدفاع عن الحق والصدق وبث روح الفضيلة والتضحية بين الناس.

وعلى الرغم من ذلك كله، نجد الغذامي يشير إلى أن " الشعر ديوان العرب وسجل وجودها الإنساني والتاريخي، وبما أنه كذلك فلا مفر من حث الناس على تعلمه، كما فعل عمر في رسائل إلى بعض ولاته،وكما فعل ابن عباس الذي جعل الشعر أحد مصادر تفسير الآيات القرآنية"[٤]. وهنا نريد أن نسأل الغذامي،كيف يمكن لخليفة مثل عمر أن يلجأ إلى حث الناس على تعلم الشعر،وكذلك ابن عباس، إذا كانا يدركان أن الشعر هو الشر وهو الكذب، في مخالفة صريحة لموقف الرسول (ص)، وهذا محال.

إن الرسول الكريم الذي كان يؤكد في كثير من مواقفه قوله: " إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق، وهذه المكارم هي الكرم والعفة والمروءة والوفاء وغيرها، وهي المكارم نفسها التي حفظها الشعر، وأكد عليها، بوصفه حافظاً لهوية الأمة، ومجسداً لروحها وثقافتها، وليس كما يقول الغذامي من أن " القيم

---

[١] - الإمام أبو عبد الله محمد البخاري، **صحيح البخاري**، ص١٩٧٦، رقم الحديث ٤٨٥١، وص٢٢٧٦ رقم الحديث ٥٧٩٣.

[٢] - يوسف بن عبد البر (أبو بكر)، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ص٣٤٥.

[٣] - الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧.

[٤] - عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي**، ص٩٧.

الشعرية هي قيم البغي والاستكبار والفخر بالأصل القبلي، وهذا يرتبط بالغزو والشعر الذي لا بد أن يمجد وأن يخلّد هذه المعاني. وهذه هي الحال منذ عمرو بن كلثوم المتباهي بالظلم والتسلط إلى زهير بن أبي سلمى الحكيم الذي يقول إن من لا يظلم الناس يُظلم " [١]. ولو أن الغذامي سعى وراء معاني الكرم والوفاء والحكمة التي يتضمنها الشعر الجاهلي، والشعر الذي تلاه، لكان أدرك الحدود الشاذة للقيم الشعرية التي أوردها هنا، وأن المعاني الإيجابية هي الأصل، وما عداها شاذ وغريزي يتبع سلوك الإنسان غير المنضبط. فالغذامي لم يجد في شعر زهير سوى نصف بيت من معلقته التي نظمها تكريماً لهرم بن سنان والحارث بن عوف اللذين أوقفا حرباً ضروساً بين الأقارب، وحقنا دماءهم بعد أن دفعا ديات القتلى من مالهما الخاص، وقد تناسى الناقد المعاني النبيلة التي تتصل بالحكمة والحِلم والوفاء والعفة والإيثار التي تمتلئ بها معلقته ويمتلئ بها ديوانه الشعري.

بعد ذلك نجد الغذامي يمعن في إضفاء صفات خاصة استثنائية على الفحل الشعري الذي تلك اختراعه بوصفه يمثل رأس الهرم الطبقي، ومكانته لا تتحقق إلا بإلغاء الآخرين عبر الظلم والبغي وسطوة الفرد الواحد، والقدرة على البطش وتضخم الذات، ويسوق أمثلة على الفحل الشعري، فيذكر جريراً والفرزدق وأبا تمام والمتنبي وغيرهم، على أن كلاً من هؤلاء الشعراء إنما ورث صفات التفحيل عن أبيه الشاعر، أو عن جده الشاعر، عبر تمثل تلك الصفات جيلاً، لا بل يزيد عليها. يقول: " وكما رأينا الفرزدق وجريراً يتقاسمان ضمير الأنا، فإن تنامي هذه الأنا النسقية يأخذ بالتلون والتنوع على أيدي الشعراء جيلاً بعد جيل، فالمتنبي وهو المترجم الأكبر للضمير النسقي مما يجعله شاعرنا الأول (الأب النسقي)"[٢]. قبل أن نشير إلى المتنبي بوصفه أباً نسقياً، كما يقول الغذامي، نلفت إلى تضخم الأنا عند جرير والفرزدق، هذا التضخم الذي فاعله ما عرف بشعر النقائض، الذي عملت السلطة الأموية في بعض مراحلها على خلق المناخ المناسب له، بوصفه وسيلة لتسلية الجماعة العاطلة عن العمل، ولإلهائها عما يجري داخل السلطة، خاصة أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك وابنه الوليد، إذ انبرى الهجاؤون يملؤون أوقات الناس بأهاجيهم التي تحولت إلى نقائض مثيرة ومقذعة في الهجاء والتفاخر بالأنساب

[١] - المرجع نفسه، ص١٠٢.

[٢] -المرجع نفسه، ص١٢٥.

وبالكلام على الثأر، وبالتشبيب والمس بأعراض الناس وهتك عورات النساء، خاصة بين جرير والفرزدق، مما تطلب من كل منهما البحث عن معان يتفوق بها على الآخر، وينال منه، وممن ينتمي إليهم تحت سمع السلطة وبصرها [١].

أما بالنسبة إلى المتنبي، فنرى الناقد يقدم شواهد من شعره يستدل من خلالها على الاستفحال وتضخم الأنا، كما في قوله:

" أَنا الَّذي نَظَرَ الأَعمى إِلى أَدَبي وَأَسمَعَت كَلِماتي مَن بِهِ صَمَمُ

أَيَّ مَحَلٍّ أَرتَقي أَيَّ عَظيمٍ أَتَّقي

وَكُلُّ ما قَد خَلَقَ اللهُ وَما لَم يَخلُقِ

مُحتَقَرٌ في هِمَّتي كَشَعرَةٍ في مَفرِقي

وَإِنّي لَمِن قَومٍ كَأَنَّ نُفوسَنا بِها أَنَفٌ أَن تَسكُنَ اللَحمَ وَالعَظما " [٢]

بالإضافة إلى نصوص أخرى يرى فيها الغذامي أن المتنبي يحتل مكان الصدارة في الخطاب النسقي من خلال تعاظم ذاته، وامتلائها به، دون أن يبقي فيها أي مكان للآخر، فهذه الذات فوق القانون وفوق الناس، وهو في ذلك كله ابن نسقي تناسل من قوم آخرين يمثلون طبقة نسقية متعالية [٣]. ولكن على الرغم من أن المتنبي يحمل في داخله بعضاً من هذه الصفات، غير أنه يحمل معها صفات أخرى أكثر إيجابية، وأكثر إنسانية، وتنبئ باتساع أفق شخصيته وفيضها على الآخر، من خلال رؤيا تعمق حس الفضيلةوالحق ورفعة الإنسان،ومنخلال نبذه لكل أشكال الخضوع والهيمنة والذل، في مثل قوله:

" إِذا أَنتَ أَكرَمتَ الكَريمَ مَلَكتَهُ وَإِن أَنتَ أَكرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَّدا

وَوَضعُ النَدى في مَوضِعِ السَيفِ بِالعُلا مُضِرٌّ كَوَضعِ السَيفِ في مَوضِعِ النَدى [٤]

---

[١]-شوقي ضيف، **العصر الإسلامي**، ص٢٤٠- ص٢٥٠.

[٢]- عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي**، ص١٢٦-١٢٧.

[٣]- المرجع نفسه، ص١٢٧-١٢٨.

[٤]- أبو الطيب المتنبي، **الديوان**، ص١٥٠.

وقوله:

أَيـــــنَ فَضـــــلي إِذا قَنِعـــــتُ مِـــــنَ الـــــدَهرِ بِعَـــــيشٍ مُعَجَّـــــلِ التَنكيـــــدِ

عِـــش عَزيـــزاً أَو مُـــت وَأَنـــتَ كَـــريمٌ بَـــينَ طَعـــنِ القَنـــا وَخَفـــقِ البُنـــودِ

فَـــرُؤوسُ الرِمـــاحِ أَذهَـــبُ لِلغَـــيظِ وَأَشـــفى لِغِـــلِّ صَـــدرِ الحَقـــودِ

فَاطلُـــبِ العِـــزَّ في لَظـــى وَدَعِ الـــذُلَّ وَلَـــو كـــانَ في جِنـــانِ الخُلـــودِ [١]

وقوله:

" وَإِنَّمـــا النـــاسُ بِـــالمُلوكِ وَمـــا تُفلِـــحُ عُـــربٌ مُلوكُهـــا عَجَـــمُ

لا أَدَبٌ عِنـــــدَهُم وَلا حَسَـــــبٌ وَلا عُهـــــودٌ لَهُـــــم وَلا ذِمَـــــمُ

بِكُـــــلِّ أَرضٍ وَطِئتُهـــــا أُمَـــــمٌ تُرعـــــى لِعَبـــــدٍ كَأَنَّهـــــا غَـــــنَمُ

يَستَخشِـــنُ الخَـــزَّ حـــينَ يَلمُسُـــهُ وَكـــانَ يُـــبرى بِظُفـــرِهِ القَلَـــمُ" [٢]

وقوله:

"مَـــن يَهُـــن يَســـهُلِ الهَـــوانُ عَلَيـــهِ مـــا لِجُـــرحٍ بِمَيِّـــتٍ إِيـــلامُ" [٣]

وهناك معان كثيرة مماثلة يستبطنها شعر المتنبي، كان أولى بالناقد الغذامي أن يكون أكثر انسجاماً مع ذاته في إظهارها، والإشارة إليها، وأكثر شفافية في إطلاق أحكام بريئة وإيجابية من شأنها أن تطبع دراسته بالحيادية والعلمية، ذلك أن سعيه لقلب المعادلة وتجريم المثقف/الشاعر، وتتريه السلطة عن ممارسات التعالي وإلغاء الآخر المعارض، ومسحه من الوجود والذاكرة، في أحيان كثيرة، فيه كثير من العنت والبعد عن الموضوعية.

وقبل أن نغادر هذا المحور لا بد لنا أن نقف عند مصطلح الطبقات الثقافية الذي ضمنه الناقد في دراسته، بوصفه جزءاً فاعلاً في النقد الثقافي، على اعتبار أن تقسيم الشعراء إلى طبقات هو تمييز لهم من

---

[١] - المرجع نفسه، ص٣٢٠- ص٣٢٢.

[٢] - المرجع نفسه، ص٥٩.

[٣] - المرجع نفسه، ص٩٤.

سائر البشر، يقول: " ثم إن مصطلح (الطبقات) ارتبط بعنصرين مهيمنين وملازمين له، هما عنصرا الفحولة وعنصر الأوائل، والطبقة الأرقى هي الأقدم وهي الأفحل، وهذا حسم الموقف في وقت مبكر ضد الحاضر والمستقبل.... وجعل الأول هو النموذج الكامل الذي لا تتوقع الثقافة نموذجاً أرقى منه"[١]، وقد فات الغذامي أن تصنيف الشعراء إلى طبقات كان تمت استعارته من رتب الموجودات الإلهية، ومن رتب الأشياء، وكانت الدراسات القرآنية أوجدت تراتباً في درجات اللفظ والمعنى، ثم تم تقسيم الخطابات الدينية والثقافية، فالقرآن الكريم خطاب من الدرجة الأولى، لأنه كلام الله وعلمه الأول، ثم يأتي الحديث الشريف بوصفه خطاباً من الدرجة الثانية لأنه يمثل حاشية على الخطاب الأول، ثم تأتي خطابات البنية الثقافية من شعر ونثر بوصفها خطابات من الدرجة الثالثة [٢].

ولو أننا عدنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أن مفهوم الطبقات والتمييز بين مراتب الناس يرد في أكثر من سورة قرآنية، في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**﴾ [٣]... وحتى دلالة السابقين التي ألمح إليها الغذامي، وكان استعارها من ابن المقفع، من أن الأوائل أرجح عقولاً، وبما أنهم كذلك فهم بالضرورة النسقية أعلم وأحكم [٤]. هو أيضاً حكم قرآني بامتياز، حيث نجد في الخطاب القرآني تأكيداً على أهمية السابقين، بكونهم يمثلون الصفوة في العلم والعمل ثم يأتي من تبعهم وتلمس خطواتهم وتجاربهم في المرتبة الثانية. يقول تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**﴾ [٥]، وقوله تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ [٦].

فإذا كان الغذامي يتحدث عن النقد الثقافي الذي من مهمته كشف الأنساق الثقافية المضمرة في بنية الشعر العربي، وغير المعلنة صراحة، فلماذا إذن لم يشر إلى حضور الخطاب الديني في توجيه الأقلام

---

[١] - عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي**، ص١٣٢.

[٢] - عبد الله إبراهيم، **السردية العربية**، ص٢٣٩.

[٣] - الأنعام: ١٦٥ و ٨٣ و الإسراء: ٢١.

[٤] - عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي**، ص١٣٣.

[٥] - التوبة: ١٠٠.

[٦] - الواقعة: ١٠و١١.

التي صنفت الشعراء، ومراتب اللفظ إلى طبقات، حتى وإن كانت تلك الأقلام التي صنفت الشعراء قد انحرفت عن الأصل الذي تم فيه تصنيف الناس على أساسها في القرآن الكريم، بوصف القرآن المركز الفاعل في الثقافة العربية الإسلامية ومنبع أحكامها.

إننا إذا سلمنا مع الغذامي بفاعلية النقد الثقافي في قدرته على كشف المضمر في بنية الأدب، فإن هذا النقد (بما يمتلك من شمولية، حسب زعمه) "لا يعني تمريناً اعتيادياً وتجريبياً في القراءة، إنه ممارسة مرهونة بالوعي"[١]، لا بل "إنه يسعى لإعادة ترتيب الوعي والدراية الذاتية والمجتمعية والقومية " [٢]. وهذا لم يفعله الناقد على مدار بحثه كله، لأن ممارسته النقدية هنا، أخذت نسقاً معيناً، وسعت باتجاهه، وأغفلت الأنساق الأخرى الدينية والسلطوية التي فعلت فعلها في بنية السلوك العربي شعراً وممارسة، الأمر الذي عمل الغذامي على تجاوزه كي يجنب نفسه الصدام مع الخطابين الديني أولاً، والدنيوي (السلطوي) ثانياً، وهذا الأخير جهد، في رأينا، على تطويع الخطاب الديني لأسسه ومرتكزاته، وصار يستخدمه في تسويغ أفعاله وتمريرها، كما سنرى في المحور القادم.

غير أنه وقبل أن نغادر هذا المحور، لا بد من الإشارة إلى أن الناقد الغذامي قام بنقل مفاهيم النسق والاستفحال والتفحيل والسلطة والانتهاك والحداثة وغيرها إلى رواد الشعر العربي الحديث، ونعني بهم السياب والملائكة وأدونيس ونزار قباني بوصفهم امتداداً لظاهرة التفحيل وسلطة النموذج النسقي. وبعد أن يفصل الناقد في موضوع ريادة الشعر العربي الحديث وكسر عمود الفحولة بفحولة مماثلة أو بفحولة تضاهيه وتتفوق عليه نجده يقول: "وإذا كان السياب مع نازك يمثلان مشروعين في كسر عمود النسق الفحولي والتأسيس لخطاب جديد، فإن نزار وأدونيس سيتوليان إعادة الروح للنسق الفحولي بكل سماته وصفاته الفردية المطلقة والتسلطية، وسيحققان عودة رجعية إلى النسق الثقافي القديم المترسخ، والذي سيتجدد ويزداد ترسخاً وقبولاً على يديهما كممثلين فحوليين" [٣]. وكما مارس الغذامي فعل التعمية على مضامين شعر زهير والمتنبي وغيرهما بغاية تأكيد مقولاته، نجده يمارس الفعل

[١]- محسن جاسم الموسوي، **النظرية والنقد الثقافي**، ص١٩٥-١٩٦.

[٢]- المرجع نفسه، ص١٩٥-١٩٦.

[٣]- عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي**، ص٢٤٦.

ذاته مع هؤلاء الشعراء، لا سيما نزار قباني وأدونيس، إذ يقدم شواهد شعرية لهما، تدل حسب رأيه، على الفحولة وطغيان الأنا وتعاليها واستبدادها وإلغائها للآخر بطريقة انتقائية وقسرية [١].

أما من الجانب الآخر، فنجد الناقد يؤكد رجعية الحداثة وغيابها في البعد الاجتماعي والفكري، وأنها حداثة فردية متشعرنة نسقية[٢]. غير أننا نعود لنذكر ما كنا أشرنا إليه في المحور السابق، من أن ما يتم الإعلان عنه بين الحين والآخر على أنه حداثة دخلت مجتمعاتنا، ما تزال في الإطار الشكلي، ولم تستطع اختراق بنية المجتمع العربي وثقافته، لأن هذا المجتمع ما يزال يعيش حالات من الانفصام في التعامل مع مفرزات الحضارة، ويكاد يبدو عاجزاً عن التفاعل مع أي من هذه المفرزات بشكل منظم وعقلاني، وفي ظل ذلك تغيب الحداثة الحقيقية وسط لجة القيم التقليدية، والممارسات الصنمية للحداثة.

ثالثاً: تزييف الخطاب/صناعة الطاغية:

إن الغذامي في أثناء كلامه على محاولات تزييف الخطاب الثقافي والطعن في أهم قيمه، ونعني بها هنا قيمة الكرم بوصفها قيمة عليا في المجتمع، مرتبطة بالسلوك الإنساني الراقي، نجده يلمح إلى " شخصية الملك المطلق بصفاته المتعالية ومنزلته المتفردة، وهي صفات سعى المناذرة والغساسنة إلى اكتسابها، لا عن طريق الجيوش، بل عن طريق المدائح الشعرية في مقابل بذل المال على المداحين"[٣]. ثم يشير إلى أن الثقافة " اخترعت الرغبة والرهبة ليكونا أساساً شعرياً"[٤]. ويضيف"وكما أن الثقافة صارت ثقافة شحاذة حسب النسق الشعري، فإنها اتسمت بسمة الروح الإرهابية في القمع والتخويف"[٥].

بعد ذلك نجد الغذامي يقفز فوق خمسة عشر قرناً في الزمن، حاطاً رحاله في أواخر القرن العشرين عند صدام حسين بوصفه نموذجاً سلطوياً، يمثل الأنا المتضخمة الفحولية التي لا تقوم إلا عبر التفرد المطلق بإلغاء الآخر، وبتعاليها الكوني، وبكونها هي الأصح والأصدق حكماً ورأياً، ويكون

---

[١]- المرجع نفسه،ص٢٩٢.ويمكن التأكد من عدم صحة مزاعم الغذامي بالعودة إلى نماذج أخرى من شعر نزار وشعر أدونيس، تنحو منحىمختلفاً،وتقدم معاني أخرى تقف على طرفي نقيض مع ما يقدمه الناقد هنا مما لا يتسع المجال لذكره.

[٢]- المرجع نفسه، ص٢٩٢-٢٩٣.

[٣]- عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي**، ص١٤٤.

[٤]- المرجع نفسه، ص١٤٩.

[٥]- المرجع نفسه، ص١٥٢.

الظلم عندها علامة قوة وسؤدد، والكذب عندها مباح، ولا يستقر وجودها إلا بسحق الخصم، إلى آخر هذه الصفات التي يؤكد الغذامي فيها، أن معجم صدام حسين يعني التطابق مع النموذج الشعري النسقي[١]. ولكن، مع إقرارنا بأن ما يقوله الغذامي هو صحيح، نريد أن نسأل، ما السر الذي جعله يعبر فوق كل تلك القرون من الزمن، من الغساسنة والمناذرة إلى صدام حسين ؟ ولماذا أغفل عصوراً مورس في جوانب منها أشكال من التنكيل والقتل، حتى إنه يمكن القول، بحسب مصطلحات الغذامي، إن صدام حسين هو ابن نسقي لكثير من الحكام قبله، وسلطته امتداد لسلطات أبوية سابقة، كما كان جرير والفرزدق والمتنبي وغيرهم أبناء نسقيين لما قبلهم. إننا نرى أن أنساقاً مضمرة متخفية في ثقافة الغذامي، تتكشف لنا، وتطل علينا بين الحين والآخر من خلال ممارسته النقدية هذه، لعل أبرزها ما استكمل بها قيمة الكرم التي تحولت، حسب زعمه، من بعدها الأخلاقي إلى بعد شعري، إذ يقول: " هناك علاقة كاشفة تدل على مدى الخراب النسقي الذي أحدثه الشعر في سلوكيات الثقافة، وذلك في حادثة تولي عمر بن عبد العزيز للخلافة، حيث جاء الشعراء إلى ديوان الخلافة مصطفين في صفوف، ومحملين بالمدائح كما هو الطقس الثقافي المبرمج، مديح كاذب متزلف ومال مغدق، غير أن ما رأوه من ذلك الملك الصالح هو العزوف التام عن تلك البضاعة المغشوشة، و لم يخضع للعبة الرغبة والرهبة"[٢].

إن هذا النص الذي قدمه الناقد هنا، يكشف وبشكل جلي عن خطاب الهيمنة والتسلط الذي يمكن أن يجسده الحاكم في ممارساته، مهما كانت طبيعة هذا الحاكم، سواء أكان ملكاً أم أميراً أم والياً أم زعيم قبيلة، حتى وإن تغيرت الأسماء والألقاب، حتى وإن ادعى هذا الحاكم بأنه خليفة للمسلمين، أو أمير للمؤمنين على أساس أنه يحكم بشرع الله وسنة رسوله الكريم، وليس بشرع الدنيا وسلطتها المستبدة ؟!، فإذا كان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أميناً على قيم الحق والفضيلة من خلال سلطته الدينية والدنيوية التي تقوم على إصلاح المجتمع وتقويم ما انحرف من سلوك الأفراد، فإننا نرى أن شاهد الغذامي هذا يضمر أنساقاً أخرى، غاية في الخطورة والأهمية، تشي بأن السلطة هي التي تستدرج الشعراء وغيرهم لتمجيدها وتثبيت نظامها، بوصفها سلطة مستمدة من السماء، وكل من يخالفها هو

[١]- المرجع نفسه، ص ١٩٢ _ ١٩٤.

[٢]- المرجع نفسه، ص١٥٧.

مارق وزنديق وعاصٍ، يجب القصاص منه، واستئصاله باسم الدين أو باسم السلطة ذاتها. وأن الغذامي قد مارس نوعاً من التقية بغاية التعمية عما يمكن أن تمارسه السلطة الدينية أو السياسية. ويحفظ لنا التاريخ صنوفاً شتى من الممارسات التي تكشف عن استبداد هذه السلطة وطغيانها، بما مارسته من عمليات إقصاء للآخر، وترهيبه وقتله.

وقبل أن نسرد له بعضاً من هذه الممارسات، نشير إلى بعض طقوس النقائض التي كان أشير إليها سابقاً، ونلفت إلى الحادثة المشهورة التي جرت مع الخليفة سليمان بن عبد الملك في أثناء حجة له، حيث مورس فيها القتل من خلال مظاهر احتفالية الطابع تعكس استهتاراً بقيم الإنسان الذي كرمه الله تعالى، تلك القيم التي تمثلها الرسول الكريم (ص) وخلفاؤه من بعده، والتي تنص على عدم قتل الأسرى أو التنكيل بهم، فقد جيء بآلاف من أسرى الروم إلى هذا الخليفة وهو في طريقه إلى حج بيت الله الحرام، فأمر بحزّ حلاقمهم، وأعطي لبعض من صحبوه أسياف يضربون بها رؤوس هؤلاء القوم، وكان ممن يصحبه جرير والفرزدق، فأعطي الفرزدق سيفاً كليلاً لا يقطع، فلما ضرب الرومي لم يصنع شيئاً في الرومي، فانتهز جرير هذه الحادثة ليضحك الناس عليه، وليشعره بضعفه وجبنه ووهن ساعده [١]، مما يؤكد تلاعب السلطة بالناس من خلال كسر إنسانيتهم، دون أن ندري إن كان الشعر العربي ومن خلفه الشاعر وراء مثل تلك الأفعال ؟!.

نعود إلى بعض المرويات المدونة التي تبين ممارسات السلطة في القتل والتنكيل ألم يأمر النعمان بن المنذر بقتل (سنمار) الذي بنى له قصر الخورنق، حيث تم قذفه من أعلى القصر فتقطع ومات ؟ [٢]، ثم يأمر بقتل الشاعر المنخل اليشكري ودفنه حياً [٣]، ثم ألم يأمر الملك عمرو بن هند عامله على البحرين بقطع يدي الشاعر طرفة وخاله المتلمس ورجليهما ودفنهما أحياء لأنهما هجواه ؟ [٤]. وفي العصر الأموي يتم قتل الشاعر الكميت بن زيد على يد جند خالد القسري بالسيوف[٥]. ويقتل الوليد بن يزيد

[١] - شوقي ضيف، **العصر الإسلامي**، ص٢٤٨.

[٢] - خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ص٢٠٨.

[٣] - أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ص٥-١٠.

[٤] - المرجع نفسه، ص٢٣٢-٢٣٤.

[٥] - المرجع نفسه، ص٢٢-٢٣.

بن عبد الملك نديمه القاسم بن الطويل العبادي الأديب والشاعر، حيث أمر أن يُضرب عنقه، ويؤتى برأسه في طست وهو سكران[١]، ويُقتل الشاعر حجر بن عدي الصحابي الذي شهد القادسية مع أصحابه عام ٥١ هـ من قبل المغيرة بن شعبة بأمر من معاوية [٢]. ويقتل مصعب بن الزبير من قبل مروان بن الحكم، ثم يقتل عبد الله بن الزبير من قبل الحجاج أيام عبد الملك بن مروان، ويحز رأسه ويلعب به كما يلعب بالكرة [٣]. ويقال إن من قتلهم الحجاج صبراً يزيدون على مائة وعشرين ألفاً [٤]. حتى إنه يروى أنه لما بلغ الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز موت الحجاج، خرّ ساجداً، وكان يدعو الله أن يكون موته على فراشه ليكون أشد لعذابه في الآخرة [٥].

وبعد ذلك تآمر الأمويون على هذا الخليفة العادل فقتلوه، وكانوا من قبل قد قتلوا معاوية الثاني ابن يزيد لأنه صارحهم بمظالمهم، وأنكر عليهم استهتارهم بالحقوق العامة، أو لم يكن يزيد بن معاوية سكيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وقد قتل الحسين بن علي حفيد الرسول (ص) وأهله وأنصاره، وسبى نساءهم في السنة الأولى من ولايته، وفي السنة الثانية نهب مدينة الرسول وأباحها لجنوده، وقتل من أهلها أحد عشر ألفاً في موقعة الحرّة منهم سبعمائة من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي (ص)، وانتهكت حرمة ألف عذراء أو ما يزيد [٦].

أو لم يكن زياد بن أبيه مثالاً لجبروت السلطة عندما خطب: " وإني أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه، فيقول: انج سَعَد فقد هلك سعيد ! أو تستقيم لي قناتكم " [٧]، ومثله يفعل الحجاج عندما خاطب أهل العراق بقوله: " يا

---

[١] - المرجع نفسه، ص٧٧.

[٢] - خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ص١٧٦.

[٣] -أحمد بن عبد ربه، **العقد الفريد**، ص١٦٤.

[٤] - المرجع نفسه، ص٣٠٩.

[٥] - المرجع نفسه، ص٣١٤-٣١٥.

[٦] - جورج جرادق، **الإمام علي صوت العدالة الإنسانية** ، ص٦٢٦ وما يليها. وابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الخامس، ص١٢٩ و ص١٣٤ وص ١٣٦-١٣٩.

[٧] - ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ص٢٠٠.

أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، وأيم الله لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المرْوَة... ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، أما والله لا أعد إلا وفيت.... والله لتستقيمن على طريق الحق، أو لأدعنّ لكل رجلٍ منكم شغلاً في جسده ! من وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانتهبت ماله وهدمت منزله" [١].

ثم ألم يسر العباسيون على خطا أسلافهم الأمويين في القتل والتنكيل وكم الأفواه، بعد أن افتتحوا سلطانهم بإلغاء الأمويين والقضاء على أمرائهم، عندما نفذ عبد الله عم أبي العباس السفاح الذي عين والياً على الشام القضاء على أمراء بني أمية، فأعلن عفواً عاماً عنهم، وأكده لهم بدعوة ثمانين من زعمائهم إلى وليمة، وبينما هم على الطعام، أشار إلى جنوده من مخبئهم، فخرجوا عليهم، ورموا رؤوسهم بالسيوف، ثم فرشت الطنافس فوق جثث القتلى، واستمرت المأدبة، واستبدل بزعماء الأمويين رجالاً من العباسيين، جلسوا فوق جثث أعدائهم، ثم أخرجت جثث بعض الموتى من خلفاء بني أمية، وسيطت هياكلهم التي كادت تكون عارية من اللحم، وشنقت وحرقت، وذرّ رمادها في الريح [٢]. ثم استمرت بعد ذلك عمليات القتل والتنكيل، حيث يتم قتل عبد الله بن المقفع على يد أبي جعفر المنصور بتقطيع جسده ثم يشوى في التنور [٣]. ويأمر المهدي بضرب بشار بن برد بالسوط وهو رجل مسن ضربة أتلفه فيها ثم رمي في الماء بعد أن بلغه أنه هجاه، وكان اتهمه بالزندقة، ثم رأى خلاف ذلك فندم أشد الندم[٤]، ثم يقتل الشاعر عبد الله بن المعتز خنقاً، ويتم ذبح الشاعر (أبو نخيلة) بأمر عيسى بن موسى، ويسلخ جلده [٥]، ويقتل دعبل الخزاعي على يد أحد أمراء المتوكل العباسي [٦]، ويقتل الحسين بن منصور الحلاج على يد المقتدر العباسي، وتحرق جثته، ويرمى رمادها في نهر دجلة،

---

[١]- المرجع نفسه، ص٢٠٩.

[٢]- ول وايرل ديورانت، **قصة الحضارة**، ص٨٧. وابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ص٢٢٦-٢٢٧. و أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ص٣٤١.

[٣]- خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ص٢٨٤.

[٤]- أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ص٢٤١-٢٤٢ و ص٢٤٦-٢٤٧.

[٥]- المرجع نفسه، ص٤٠٤.

[٦]- المرجع نفسه، ص٢٠٠.

وينصب الرأس على جسر بغداد [١]، وإذا أردنا أن نتجه نحو الشرق إلى غزنة والهند وغيرهما سوف نجد كيف يتم القتل والتنكيل والسلب من قبل ملوك وأمراء وولاة ضمن طقوس تنتهك فيها حقوق الفرد وتداس كرامته [٢].

بعد هذا العرض التاريخي الذي تم تقديمه على بعض ممارسات السلطة، يمكن أن نسأل: هل يصح القول بعد ذلك إن الخطاب الثقافي هو المسؤول عن فساد الحاكم ؟ ومن ثم المسؤول عن طغيان الأنماط السلوكية الفردية والأعراف الثقافية التي تمجد الحاكم، وتجعل منه كائناً غير ثقافي وغير إنساني؟، أم أن العكس هو الصحيح ؟ ألم يدرك الغذامي أن السلطة، بحد ذاتها هي علاقة قوة، وأن العالم تحركه إرادة القوة وليس إرادة الفضيلة ؟ وهذا ما دفع السلطة في كل زمان ومكان لكي تستقطب جمهور المثقفين، لترويج أفكارها ومساندة دعواها وتمجيد فعلها، سواء أكان هؤلاء المثقفون شعراء أم كتاباً أم فقهاء أم غير ذلك ؟، المهم أنهم يرتبطون بأنساق السلطة، ويقنعون الناس بصواب موقفها. إنه "كلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج إلى زيادة جيش المتمجدين العاملين له، المحافظين عليه"[٣]، وعندما يمتنع الآخر عن التمجيد كان يقتل وينكل به، وإلا ما معنى أن يرفض الخليفة عمر بن عبد العزيز جماعات الممجدين والمنافقين، ويأبى سلوكهم، ساعياً إلى رسم سياسة تقوم على الصدق والعدالة ؟ فتم خلعه وقتله، لأنه كان أميناً على قيم الحق والفضيلة، وليس على قيم البغي والاستكبار!. ألم يقل ابن خلدون: " وأما المُلك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحبها متبوع، وصاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها، فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس" [٤].

ولعل هذا السر في أن ملوك العرب وأمراءها وزعماءها لا يغادرون سلطانهم إلا بالوفاة أو بالقتل، لأن الملك منصب مطلوب، يشتمل على خيرات وشهوات لا تحصى، ومن طبيعته الانفراد

---

[١] - خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ص٢٨٥.

[٢] - ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ص١٢٦ وما يليها.

[٣] - عبد الرحمن الكواكبي، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، ص١٠٧.

[٤] - عبد الرحمن ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ص١٣٩.

بالمجد وإقصاؤه عن الآخرين، وقد يكون ذلك ناتجاً عن طبيعة السلطة بوصفها تقوم على إعادة إنتاج ذاتها، وناتجاً أيضاً عن طبيعة الملك بما يحتويه من عناصر سيطرة وقهر وإفساد. وفي القرآن الكريم ما يشهد على ذلك، في قوله تعالى: ﴿**قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ [١] والملوك حكام أصحاب سلطة، والسلطة لا يمكن لها أن تكرس سيطرتها أو سطوتها إلا بامتلاكها السلطة الثقافية التي تستخدمها معبراً لتمجيدها وتسويغ أفعالها.

إن ذلك قد يكون حقيقة بشرية، أكدتها طبيعة الإنسان التي جُبل عليها، وقد لفت القرآن الكريم إلى الأسباب التي تجعل من الناس ميالين للشر وليس للخير في قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ [٢] وشواهد ذلك في كتب التاريخ والتراجم وعلم الاجتماع أكثر من أن تحصى[٣]. فطبيعة النفس البشرية ميالة إذن إلى الشر والسوء وليس إلى الخير، فكيف إذا طغت هذه النفس وتجبرت واستعلت على أبناء جنسها من خلالها تسلطها وهيمنتها على مقدرات البلاد والعباد، وإلا لماذا يجعل الله سبحانه وتعالى الحسنة بعشرة أمثالها والسيئة بمثلها ؟!.

إن السلطة تميل إذن، بحسب طبيعتها إلى الشر والطغيان، وتعزيز استبدادها، والذي يمكن أن يصون كرامة الإنسان هو تكريس العدل وتهيئة الأجواء الملائمة لنمو ملكاته، ومساواته في الحقوق والواجبات، وليس إلى مصادرة حريته، وإكراهه على فعل ما لا يرغب فيه، وشراء ولائه بآلياتها المختلفة، وقد كان من الواجب على الناقد الغذامي، أن يلفت إلى طبيعة السلطة، وأن يقوم بتعريتها كما هي من خلال سلوكها الضاغط الذي تمارسه في ترغيب الآخر وترهيبه، لا أن يغادرها، ويستبدل

---

[١]- النمل: الآيتان ٣٣-٣٤.

[٢]- آل عمران: ١٤.

[٣]- عبد الرحمن ابن خلدون ، **مقدمة ابن خلدون**، ص١٧٩-١٨٢ للوقوف على ما كان يدخل خزينة المأمون العباسي من قناطير الذهب والفضة والحلي والعسل وماء الورد والعود ومن الحرير والرقيق وغير ذلك.

استبدادها وطغيانها باستبداد المثقف التابع وكذبه ونفاقه وتقيته، مما يجعل من أحكامه التي ساقها في مشروعه الثقافي هذا موضع شك وتحريف بوصفها أحكاماً تعوزها الدقة الموضوعية.

الخاتمة:

بعد أن وقفنا على مضمون كتاب النقد الثقافي للدكتور الغذامي، وجدنا أن مشروعه النقدي يقوم على طرح النقد الثقافي بديلاً من النقد الأدبي الذي أعلن عن موته، بعد أن أخفق، حسب زعمه، في كشف عيوب النص الأدبية، وأخفق في كشف أقنعة المؤسسة الثقافية التي تحتضنه وترعاه، وأن النقد الثقافي بأدواته وطرائقه، هو البديل الفاعل القادر على كشف أنظمة النصوص، وكشف العلاقات التي تربط هذه النصوص بالمؤسسات الثقافية والاجتماعية، ومن ثم كشف الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بمختلف تجلياته وأنماطه. وقد سعى الناقد إلى تأكيد ذلك على مستوى دراسته كلها، فقد حمّل الشعر العربي مسؤولية صياغة الشخصية العربية صياغة سلبية تتأسس على الكذب والنفاق والتسلط من خلال صفات استثنائية مماثلة، اخترعها الشاعر، تقوم على التفحيل وتضخيم الأنا وإلغاء الآخر، تم توارثها جيلاً بعد جيل، مما هيأ لظهور أنماط سلطوية تتمثل هذه الصفات وتعمقها من خلال ممارساتها اليومية الضاغطة.

غير أنه بينا من خلال مناقشة هذا المشروع أن النقد الأدبي ما زال حياً، ويمكن أن يمارس فعله النقدي، وأن يكشف عن مضمرات النصوص التي يقرؤها، وأن النقد الثقافي نقد طارئ ودخيل، أخفق الناقد في تمثل طرائقه، كما حاولنا تصويب بعض مسارات البحث، فيما يخص اختراع الفحل الشعري، بوصفه يمثل رأس الهرم الطبقي من خلال ما عرف بمصطلح الطبقات الثقافية الذي هو مصطلح ديني بامتياز. أما فيما يخص تزييف الخطاب وصناعة الطاغية اللذين يرجعهما الناقد إلى المؤسسة الثقافية الشعرية بخاصة، فإننا أوضحنا كيف أن السلطة السياسية بما تمتلك من أدوات هيمنة وقوة، هي التي تسعى لتكريس مثل تلك الأفعال وفرض أنساقها على مفاصل الحياة.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- إبراهيم، د. عبد الله، **السردية العربية**، الطبعة الثانية،ا لمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.

٢- الأصفهاني، أبو الفرج، **الأغاني**، شرحه وكتب هوامشه عبد علي المهنا، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

٣- البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد، **صحيح البخاري**، الجزء الخامس، ضبطه وخرج أحاديثه ووضع فهارسه الدكتور مصطفى البُغا، د.ط ، مطبعة الهندي، د.ت.

٤- جابر، يوسف حامد، **قضايا الإبداع في قصيدة النثر**،الطبة الأولى، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩١م.

٥- جرداق، جورج، **الإمام علي صوت العدالة الإنسانية**، الجزء الثاني، الطبعة الاولى ،منشورات ذوي القربى، د.ت.

٦- ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة ابن خلدون**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٧- ديورانت، ول وايرل، **قصة الحضارة**، الجزء الثالث من المجلد الأول، ترجمة زكي نجيب محمود، دار الفكر، بيروت.

٨- ــــــــــــــ **قصة الحضارة**، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت.

٩- الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، الجزء الثاني والثالث والرابع، الطبعة الثالثة، د.ت.

١٠- ضيف، شوقي، **العصر الإسلامي**، الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣م.

١١- ابن عبد البر، أبو بكر يوسف، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، الجزء الأول، تحقيق علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.

١٢- ابن عبد ربه، أحمد، **العقد الفريد**، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٣- الغذامي، عبد الله، **النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية**،الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، المملكة المغربية، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.

١٤- الغذامي، عبد الله ، اصطيف، د. عبد النبي، **نقد ثقافي أم نقـــد أدبي**، د.ط، دار الفكـــر، دمشق، سورية، ، ٢٠٠٤م.

١٥- الكواكبي، عبد الرحمن، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، دراسة وتحقيـــق د. محمـــد جمال طحانة، الطبعة الاولى، دار الأوائل للنشر والتوزيع، سورية، دمشق، ٢٠٠٣م.

١٦- المتنبي،أبو الطيب،*ديوان أبي الطيب المتنبي*،شرح أبي البقاء العكبري،دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٧- الموسوي، محسن جاسم، **النظرية والنقد الثقافي**،الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.

١٨- ناصف، د. مصطفى. **نظرية التأويل**،الطبعة الأولى، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكـــة العربية السعودية، ٢٠٠٠م.

١٩- هلال، محمد غنيمي، **النقد الأدبي الحديث**، د.ط، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٧٣م.

Abstracts in English

A Critical Look at Cultural Criticism by Dr. Abdollah Ghazami

Dr. Yusef Hamid Jaber*

Abstract

The book, *Cultural Criticism,* aims to discover literary patterns which comprise the current cultural infrastructure. The author uses a critical approach which is different from the established literary criticism, which limits itself to exploring the beauties of literary texts and ignores the central but not so apparent themes. Therefore, cultural criticism is necessary so that these cultural patterns and themes as well as the styles of the works become known. These styles are interwoven with social styles and norms and it is these norms and styles that help or hinder their expansion. This article examines the most important themes of this book and attempts to suggest modifications to its approaches and methods.

Keywords: criticism, culture, patterns, text, Abdollah Ghazami

* Assistant Professor in Arabic Language and Literature Department at Teshreen University, Syria.

مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، فصليّة محكّمة، العدد التاسع، ربيع ١٣٩١هـ.ش/٢٠١٢م

چکیده های فارسی

نگاهی نقدی به کتاب نقد فرهنگی» دکتر عبد الله غذامی

دکتر یوسف حامد جابر*

چکیده

کتاب نقد فرهنگی در پی کشف مکنونات الگوهای متون ادبی ای است که زیرساخت فرهنگ رایج را تشکیل می دهند. مؤلف این کتاب طرح نقدی خود را به عنوان جایگزین نقد ادبی که مأموریتش محدود به جستجوی زیبایی های این متون است ارائه می دهد. تا مکنوناتی را که گوهر اصلی آن است نادیده بگیرد.

از اینجاست که نقد فرهنگی صورت می گیرد تا آن الگوهای فرهنگی و مضامین آن همچنین اسلوب های آن را آشکار کند که این اسلوب ها با اسلوب ها و روش های جامعه در آمیخته است و بوسیله ی آن هیمنه ی خود را گسترش می دهد و از طریق تولیدات فرهنگی و اجتماعی گوناگون این هیمنه را پنهان می کند.

در این مقاله ما مضمون این کتاب را در مهمترین بخش های آن مورد بررسی قرار داده ایم و تلاش نموده ایم برخی از روش های آن را اصلاح کنیم.

کلید واژه ها: نقد، فرهنگ، الگوها، متن، عبد الله غذامی

* - استادیار، گروه زبان و ادبیات عربی، دانشگاه تشرین، لاذقیه، سوریه.

تاریخ دریافت: 2011/12/6 =1390/9/15 تاریخ پذیرش: 2012/03/10 = 1390/12/20